

الْإِنْسَانُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ

فِي تَأْسِيسِ الْمَعْنَى الْإِنْسَانِيِّ
بَيْنَ الْكَرَامَةِ وَالْعُبُودِيَّةِ

رَدَّادُ السَّلَامِي

الإنسان قبل كل شيء

في تأسيس المعنى الإنساني

بين الكرامة والعبودية

رداد السلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

(ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات
وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً)

افتتاحية

لم أكتب هذا الكتاب دفاعًا عن الإنسان بوصفه شعارًا ثقافيًا، ولا بوصفه مركزًا للكون، ولا بوصفه كائنًا متفوقًا على كل ما حوله.

بل كتبته لأن السؤال عن الإنسان صار أكثر التباسًا من أي وقتٍ مضى.

نحن نعيش زمنًا تتضخم فيه المعرفة، وتتسارع فيه التقنية، وتُعاد فيه صياغة القيم، لكن صورة الإنسان نفسها تتآكل في العمق.

تتعدد التعريفات... ويغيب التعريف المؤسّس.

مرة يُختزل الإنسان في بيولوجيا، ومرة في اقتصاد، ومرة في هوية سياسية، ومرة في رغبة فردية.

لكن كل اختزالٍ — مهما بدا علميًا أو حديثًا — يسحب من الإنسان شيئًا من كرامته.

وليس أخطر على الإنسان من أن يُعاد تعريفه تعريفًا ناقصًا.

هذا الكتاب لا يبدأ من سؤال: كيف نُصلح العالم؟

بل من سؤال أسبق: من هو الإنسان الذي سيصلحه؟

ولا يبدأ من سؤال: كيف نحرّر الإنسان؟

بل من سؤال أعمق: ممّ نحرّره؟

وإلى أي أفقٍ نحرّره؟

فالحرية بلا غاية تُنتج تيهًا، والكرامة بلا مرجع تُنتج تضخمًا، والعقل بلا هداية يُنتج تبريرًا.

ولهذا كان لابد من العودة إلى الأصل.

القرآن لا يتعامل مع الإنسان بوصفه حادثَةً عمياء في كونٍ صامت، ولا بوصفه رقمًا في معادلة تطور، ولا بوصفه كائنًا بلا مقصد.

بل يقدمه ككائن:

- . مكرّم في أصل خلقه،
- . حرّ في نطاق أمانته،
- . ضعيف في بنيته،
- . مسؤول في اختياره،
- . قابل للتزكية أو التدهية،
- . وسائر إلى لقاء.

هذه الرؤية لا تُجمل الإنسان تجميلًا رومانسيًا، ولا تُدينه إدانةً سوداء.

إنها رؤية توازن.

إن أخطر ما يواجه الإنسان المعاصر ليس فقرًا في الوسائل، ولا نقصًا في الفرص، بل ضبابًا في المعنى.

لقد توسّعت الحياة أفقيًا، لكنها انكمشت عموديًا.

اتسعت الخيارات، لكن تضعّض الاتجاه.

صار الإنسان يعرف كيف يفعل أشياء كثيرة، لكنه لا يعرف لماذا يفعلها.

ومن هنا تبدأ الأزمة.

هذا الكتاب محاولة لإعادة ترتيب البنية من الداخل:

أن نفهم الكرامة قبل الصراع.

والحرية قبل الانفلات.

والضعف قبل الغرور.

والقلب قبل الفعل.

والتزكية قبل الإصلاح.

والعبادة قبل العمران.

فالإنسان — قبل كل شيء — ليس مشروع سلطة، ولا مشروع استهلاك،

ولا مشروع تفوق.

إنه مشروع عبودية واعية.

وإن لم تُفهم هذه الجملة بعمقها، فلن تُفهم الحرية، ولا الكرامة، ولا الحضارة.

هذا الكتاب ليس وعظًا، ولا تنظيرًا مجردًا، بل محاولة لتأسيس رؤية متماسكة للإنسان في زمنٍ يعيد تفكيكه كل يوم.

الفصل الأول

الكرامة... هل هي أصل أم امتياز؟

لم أبدأ هذا الكتاب بسؤال الحرية، ولا بسؤال الهوية، ولا حتى بسؤال العقل...

بل بدأت بسؤال الكرامة.

لأن كل ما يأتي بعدها يتفرّع عنها.

فإن لم تكن الكرامة أصلاً في بنية الإنسان، تحوّلت إلى امتياز تمنحه القوة وتسحبه القوة.

وإن لم تكن ثابتة في جوهر الخلق، صارت مرتبطة بالإنجاز، أو بالعرق، أو بالموقع، أو بالقدرة.

والتاريخ شاهدٌ على أن الإنسان — حين يُنزع عنه أصل كرامته — يصبح مادةً قابلةً للاستعمال.

القرآن يحسم المسألة من الجذر: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾

ليست الآية خبراً عابراً.

إنها بيان تأسيس.

فهو لم يقل: “سنكرم”

ولا: “نكرم المؤمنين”

ولا: “نكرم الصالحين”

بل قال: بني آدم.

أي أن الكرامة سابقة على الإيمان، وسابقة على العمل، وسابقة على الانتماء.

إنها سابقة على كل تصنيف.

وهنا تكمن الفلسفة القرآنية العميقة: الإنسان مكرم... لأنه إنسان.

لا لأنه منتج.

ولا لأنه قوي.

ولا لأنه متفوق حضاريًا.

ولا لأنه يملك أدوات التقنية.

بل لأنه كائن نفخ الله فيه من روحه، وحمله أمانة، وخاطبه، وجعله محلّ التكليف.

إن أخطر انحراف حضاري في تاريخ البشرية

لم يكن في فساد الأنظمة فقط، بل في إعادة تعريف الإنسان.

حين رُبِطت قيمته بعرقه... سالت أنهار الدم.

وحين رُبِطت قيمته بإنتاجه... تحوّل الضعيف إلى عبء.

وحين رُبِطت قيمته بوعيه الطبقي... صار المختلف عدوًا موضوعيًا.

وحين رُبِطت قيمته بقدرته التقنية... أصبح القادر سيّدًا، والعاجز فائضًا عن الحاجة.

أما القرآن... فبنى الكرامة قبل أن يبني الدولة، وقبل أن يؤسس الاقتصاد، وقبل أن يضع نظام العقوبات.

لأن كل تشريع بلا كرامة أصلية سيتحوّل إلى أداة ضبط لا إلى أداة عدل.

لكن الكرامة في التصور القرآني ليست رومانسيّة.

إنها مزدوجة البنية:

. كرامة خِلقية.

. وكرامة استقامة.

الأولى مُعطاة.

والثانية مُكتسبة.

فالإنسان مكرّم من حيث الأصل، لكنه قد يُهين نفسه إذا انحرف عن مقصده.

ولهذا يقول تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾

التقويم الحسن هو صورة الكرامة الأولى.

والرد إلى أسفل سافلين ليس سحباً للكرامة الأصلية، بل نتيجة لتعطيلها.

فالقرآن لا يسلب الإنسان إنسانيته، لكنه يكشف له أنه قادر على أن يُسقط نفسه.

وهنا يتجلى الفرق الجوهرى:

في الرؤية المادية، الإنسان كائن تطوّر من الأسفل إلى الأعلى.

أما في الرؤية القرآنية، فهو خُلق في الأعلى...

وقادر على أن يهبط.

الفارق بين الصعود البيولوجي، والسقوط الأخلاقي، فارق بين تفسير للحياة، وتفسير للمسؤولية.

إن الكرامة — حين نفهم فهمًا قرآنياً — تُنتج آثاراً بعيدة المدى:

• لا يجوز احتقار إنسانٍ لفقره.

• ولا إذلاله لضعفه.

• ولا نفيه لاختلافه.

• ولا استخدامه لمجرد منفعة.

بل حتى العدو... يظل إنساناً مكرماً من حيث الأصل، محاسباً على فعله،
لكن غير مسلوب إنسانيته.

ولهذا كان ميزان العدل في القرآن أدق من ميزان الانتقام: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ
شَنَّانُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾

فالعادلة هنا لا تُبنى على العاطفة، بل على الاعتراف بإنسانية الآخر.

لكن تبقى المفارقة الكبرى: كيف يجتمع التكريم مع التكليف؟

أليس التكليف قيداً؟

أليس الحدّ تضيقاً؟

أليست الشريعة تقييداً للحرية؟

هذا السؤال سيقودنا إلى الفصل التالي.

لأن الكرامة بلا تكليف تتحوّل إلى فوضى، والتكليف بلا كرامة يتحوّل إلى
قهر.

أما حين يجتمعان... ينشأ الإنسان قبل كل شيء.

الفصل الثاني

الحرية... انفلات أم أمانة؟

لم يكن سؤال الحرية في التاريخ الحديث سؤالاً عابراً، بل كان صرخةً ضد القهر، وانفجاراً في وجه الاستبداد، واسترداداً لحقِّ سُلِب طويلاً.

لكن المشكلة لم تكن في المطالبة بالحرية، بل في تعريفها.

فحين يُنتزع المفهوم من جذوره، ويُبنى على تصوّر مبتور عن الإنسان، تتحوّل الحرية من تحريرٍ إلى تفكيك، ومن كرامةٍ إلى عبء، ومن اختيارٍ واعٍ إلى نزوةٍ مبرّرة.

في الرؤية المادية الحديثة، الحرية تعني غياب القيود.

أن تفعل ما تشاء.

أن تختار بلا مرجعية.

أن تصوغ قيمك بنفسك.

أن تكون أنت معيارك الأعلى.

لكن هذا التعريف يفترض أمراً خطيراً: أن الإنسان مكتفٍ بذاته.

أن وعيه كافٍ لإنتاج الحقيقة.

وأن رغبته صالحة لأن تكون معيارًا.

وأن قدرته المحدودة تكفي لتحديد الخير والشر.

وهنا يبدأ الانهيار من الداخل.

لأن الحرية — إذا فهمت على أنها انفصال عن المرجع — لا تُنتج إنسانًا مستقلاً، بل إنسانًا معلقًا في فراغ.

القرآن يعيد تعريف الحرية من جذر مختلف تمامًا.

لا يبدأ من الغياب، بل من الأمانة.

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

الحرية هنا ليست حقًا مجردًا، بل مسؤولية.

ليست قدرة على الاختيار فقط، بل قدرة على تحمل نتيجة الاختيار.

إنها ليست انفلاتًا من القيود، بل قبولًا طوعيًا بالتكليف.

ولهذا كانت الحرية في التصور القرآني مقترنة دائمًا بالحساب.

فلا معنى لاختيار لا يُسأل عنه، ولا قيمة لإرادة لا تُحاسب.

الفرق الجوهرى بين الرؤيتين أن الحداثة جعلت الحرية غاية،

أما القرآن فجعلها وسيلة.

الغاية ليست أن تختار، بل أن تختار الحق.

وليست أن تتحرر من كل سلطة، بل أن تتحرر من كل عبودية

إلا عبودية الله.

وهنا المفارقة التي يعجز الخطاب المادي عن فهمها: العبودية لله... هي عين الحرية.

لأنها تحرك من:

- عبودية الهوى.
- وعبودية السوق.
- وعبودية الصورة الاجتماعية.
- وعبودية القبول الجمعي.
- وعبودية الخوف من الآخر.

فكل من ظن أنه تحرر من الإله، انتهى عبداً لشيء آخر.

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ)

الهوى هنا ليس شهوة عابرة، بل مرجعية.

حين يصبح ما أريده هو ما ينبغي أن يكون، تبدأ الفوضى الأخلاقية في التسلل.

لكن هل يعني هذا أن الحرية في الإسلام مقيدة دائماً؟

الجواب أدق من نعم أو لا.

إنها مقيدة... نعم.

لكن لا بقيود بشرية متقلبة، بل بقيود نابعة من طبيعة الإنسان نفسه.

فالقرآن لا يفرض حدوداً اعتباطية، بل يكشف حدوداً كامنة في البنية الإنسانية.

الإنسان محدود العمر.

محدود المعرفة.

محدود القدرة.

محدود التأثير.

فكيف يُعقل أن تُمنح له حرية مطلقة وهو كائن نسبي؟

الحرية المطلقة تناقض الطبيعة البشرية.

ولهذا كان ضبطها رحمة، لا قهراً.

إن أخطر ما في الحرية المنفلتة أنها تُضعف صاحبها.

فكل اختيارٍ بلا معيار يُرهق النفس.

وكل قرارٍ بلا مرجعية يستنزف الداخل.

ولهذا يعيش الإنسان الحديث — رغم وفرة الخيارات — قلقًا وجوديًا عميقًا.

كثرة الاحتمالات لا تعني كثرة الطمأنينة.

أما حين تُبنى الحرية على الأمانة، فإنها تصبح واضحة الاتجاه.

الإنسان يختار، لكن داخل أفقٍ معلوم.

يتحرك، لكن نحو غاية.

يُخطئ، لكنه يعرف أن باب التوبة مفتوح.

الحرية إذن في الرؤية القرآنية ليست تمرّدًا على النظام الكوني، بل مشاركة واعية فيه.

ليست رفضًا للحدود، بل إدراكًا لحكمتها.

ليست كسرًا للتكليف، بل قبولًا ناضجًا به.

وهنا تنشأ صورة الإنسان المتوازن: لا عبدًا للآخرين، ولا إلهًا لنفسه.

بل عبدًا حرًا.

لكن تبقى مسألة أكثر حساسية: إذا كان الإنسان حرًا... فلماذا يسقط؟

إذا كان مكرمًا...

فلماذا يفسد؟

إذا كان حاملاً للأمانة...

فلماذا يخونها؟

هذا يقودنا إلى فصلٍ أدق،

وأكثر تعقيدًا:

الفصل الثالث

الضعف البشري... هل هو عيب أم شرط لامتحان؟

حين يتحدث القرآن عن الإنسان، لا يرسم صورة ملائكية مصقولة، ولا يكتفي بمديح الكرامة والحرية.

بل يكشف طبقة أخرى في البنية الإنسانية، طبقة قد تبدو للوهلة الأولى تناقضًا: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾

آية قصيرة، لكنها تهزّ التصورات المثالية عن الإنسان.

فالإنسان — الذي كُرِّم، وحُمِّل الأمانة، وخُوطب بالتكليف — هو نفسه الذي وُصف بالضعف.

فكيف يجتمع التكريم مع الضعف؟

وكيف تجتمع الأمانة مع الهشاشة؟

أليس الضعف نقصًا يناقض مقام الاستخلاف؟

الرؤية المادية الحديثة تميل إلى إنكار الضعف.

تريد إنسانًا متفوقًا دائمًا، قادرًا دائمًا، متحكمًا دائمًا.

كل خطابها قائم على تجاوز الحدود: تحسين الجينات، توسيع العمر، تضخيم القدرة، تعظيم السيطرة.

كأن الضعف عار يجب التخلص منه.

لكن القرآن لا يرى الضعف عيبًا طارئًا، بل عنصرًا أصيلاً في التكوين.

فالإنسان ليس ضعيفًا لأنه فشل، بل لأنه مخلوق.

ضعيف أمام شهوته، وأمام خوفه، وأمام رغباته، وأمام الزمن،

وأمام الموت.

وهذا الضعف ليس إدانة، بل تذكير بحقيقته.

القرآن لا يكتفي بذكر الضعف، بل يضعه داخل سياق تربوي: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ

يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾

الضعف هنا سبب للتخفيف، لا سبب للاحتقار.

سبب للرحمة، لا سبب للإقصاء.

فالتشريع نفسه مبني على معرفة الله بطبيعة الإنسان.

لو كان الإنسان قويًا مطلقًا، لما احتاج إلى عفو.

ولا إلى توبة.

ولا إلى ستر.

ولا إلى مغفرة.

لكن ضعفه هو الذي يفتح له باب الرجوع.

ثم يكشف القرآن بعدًا آخر من الضعف: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۖ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾

ليس الوصف هنا للتشهير، بل للتشخيص.

الإنسان بطبعه يميل إلى الجزع عند الألم، وإلى التعلق عند النعمة.

وهذه البنية النفسية، إن لم تُهذَّب بالإيمان، تحولت إلى اضطراب دائم.

لكن القرآن لا يترك الصورة مظلمة،

بل يستتني مباشرة: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۖ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾

أي أن الضعف ليس قدرًا مغلقًا، بل قابل للتركية.

الإنسان لا يُدان لأنه ضعيف، بل يُمتحن في كيفية تعامله مع ضعفه.

هنا تتضح المفارقة العميقة: لو كان الإنسان قويًا بلا ضعف،

لما كان هناك معنى للامتحان.

الامتحان يفترض قابلية السقوط.

وقابلية التردد.

وقابلية الانحراف.

فلو خُلِقَ الإنسان معصومًا كالمَلَك، لما استحق الثواب.

ولو خُلِقَ مجبورًا كالمادة، لما استحق العقاب.

إنه بين الطرفين.

قادر... لكنه ليس مطلق القدرة.

عارف... لكنه ليس مطلق العلم.

مختار... لكنه ليس بلا حدود.

وهذا التوازن هو الذي يصنع إنسانيته.

إن أخطر ما يمكن أن يحدث للإنسان ليس أن يعترف بضعفه، بل أن ينكره.

حين ينكر ضعفه، يتحول إلى طاغية.

ولهذا جاء وصف الاستغناء بوصفه بداية الطغيان: (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ)

﴿أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى﴾

الاستغناء هنا ليس مألًا فقط، بل وهم الاكتفاء.

حين يظن الإنسان أنه غير محتاج، تبدأ مسافة الانفصال عن الحق.

فالضعف — إذا أدرك بوعي — يصنع التواضع.

والتواضع يفتح باب الهداية.

أما إنكار الضعف، فيصنع الغرور.

والغرور يُخلق القلب.

لكن يبقى السؤال الجوهرى:

هل يعني الضعف أن الإنسان محكوم بالفشل؟

هل يعني أنه عاجز عن الاستقامة الكاملة؟

الجواب في آية أخرى تُعيد التوازن: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾

التكليف مرتبط بالوسع.

والوسع مرتبط بالطاقة البشرية.

فالله الذي خلق الضعف، هو الذي حدّد حدود التكليف.

لا يطالب الإنسان بما يتجاوز طبيعته، ولا يحاسبه على ما لا يقدر عليه.

وهنا تتجلى العدالة العميقة في التشريع.

الضعف إذن ليس عيباً، بل شرطاً للإنسانية.

بدونه لا معنى للتوبة، ولا معنى للصبر، ولا معنى للجهد الداخلي،

ولا معنى للنمو الروحي.

إنه المساحة التي يتحرك فيها الاختيار.

وهنا تنشأ صورة الإنسان القرآني:

ليس بطلاً أسطوريًا، ولا كائنًا هشا بلا أمل.

بل مخلوقًا ضعيفًا...

يسير نحو الكمال بالاستعانة (إياك نعبد وإياك نستعين)

نحن ضعفاء بلا عونك قادرون بك.

لكن إذا كان الضعف جزءًا من البنية، فكيف يُبنى الإنسان من الداخل؟

كيف يتحول من كائنٍ مهدد بالهوى، إلى كائنٍ متوازنٍ بالوعي؟

هذا يقودنا إلى محور أعمق:

الفصل الرابع

القلب والعقل... من يقود الإنسان؟

حين نتأمل البناء القرآني للإنسان، نكتشف أن المسألة لا تتعلق بالحرية وحدها، ولا بالضعف وحده، بل بمركز القيادة.

من الذي يوجّه هذا الكائن المركّب؟

العقل؟

أم القلب؟

أم الهوى؟

أم المرجعية التي يستمدّ منها تصوّره عن العالم؟

القرآن لا يعالج الإنسان بوصفه آلة تفكير فقط، ولا بوصفه كتلة عاطفة فقط، بل ككائن له باطنٌ هو موضع القرار.

ولهذا جاءت الآية الكاشفة: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾

لم يقل: أم على عقولٍ أقفالها.

بل قال: قلوب.

لأن موضع الإغلاق ليس الذهن، بل الداخل.

في الخطاب الحديث، يُختزل الإنسان في وعيه العقلي.

يُقال: الإنسان كائن عاقل.

وكان العقل وحده يكفي لبناء الاستقامة.

لكن التجربة البشرية تقول غير ذلك.

كم من إنسانٍ يعرف الحق... ولا يتبعه؟

وكم من إنسانٍ يدرك الخطأ... ويصرّ عليه؟

وكم من إنسانٍ يمتلك معرفة واسعة... وقلبًا مضطربًا؟

العقل قد يدرك، لكن القلب هو الذي يختار.

ولهذا كان التدبّر مرتبطًا بالقلب، لا بالذكاء المجرد.

القرآن يفرّق بين الإدراك العقلي، والقبول الداخلي.

ولهذا قال تعالى: (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

العمى هنا ليس نقصًا في المعلومات، بل خللاً في البصيرة.

فالإنسان قد يرى الحق واضحًا، لكن قلبه لا ينفتح له.

وقد يسمع الحجة كاملة، لكن هواه يخلق باب القبول.

وهنا يظهر مركز الصراع الحقيقي.

القلب في التصور القرآني ليس مجرد موضع للمشاعر، بل موضع للإرادة.

هو مركز التوجّه.

إذا استقام القلب، استقام العقل.

وإذا انحرف القلب، تحوّل العقل إلى أداة تبرير.

وهذا يفسّر ظاهرة خطيرة في التاريخ الفكري: أن الذكاء لا يضمن الهداية.

فقد يكون الإنسان حادّ الفهم، واسع الثقافة، قادرًا على التحليل...

لكنه يستخدم عقله ليبرّر ما يريد، لا ليبحث عمّا ينبغي.

وهنا يتجلّى قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾

الهوى إذا أصبح مرجعًا، تبعه العقل، وسخر له الأدلة، وأعاد تشكيل

الحقائق بما يخدم الرغبة.

لكن هل يعني هذا أن العقل ثانوي؟

أبدًا.

القرآن من أكثر النصوص التي خاطبت العقل مباشرة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

غير أن العقل في التصور القرآني ليس سيّدًا مطلقًا، بل أداة هادية حين تكون في موضعها الصحيح.

العقل يقرأ، ويقارن، ويحلّل، ويستدل.

لكن القلب هو الذي يمنح القرار اتجاهه.

ولهذا كانت الهداية في القرآن مرتبطة بسلامة الداخل: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿١﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

القلب السليم...

لا يعني قلبًا خاليًا من الخطأ، بل قلبًا خاليًا من التعالي على الحق.

سليم من الاستكبار.

سليم من العناد.

سليم من عبودية الهوى.

إن أخطر ما يهدد الإنسان المعاصر ليس نقص المعلومات، بل تكدّسها بلا معيار.

وفرة المعرفة لا تعني وضوح الاتجاه.

ولهذا يعيش الإنسان الحديث — رغم اتساع مصادر العلم — حيرةً في المعنى.

العقل يبحث، لكن القلب لم يحسم مرجعيته.

فإن كان المرجع هو الذات، ظلّ الإنسان يدور حول نفسه.

وإن كان المرجع هو المجتمع، صار تابعاً لتقلباته.

أما إن كان المرجع هو الحق الأعلى، استقرّ القلب، وأصبح العقل خادماً للمعنى، لا صانعاً له من فراغ.

ومن هنا نفهم لماذا كان الذكر في القرآن دواءً للقلب، لا تمريناً ذهنياً فقط.

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

الطمأنينة ليست نتيجة معرفة نظرية، بل نتيجة استقرار المرجع.

حين يعرف القلب من هو الحق، تسقط عنه رهبة التشتت.

فمن يقود الإنسان إذن؟

ليس العقل وحده.

ولا العاطفة وحدها.

ولا الغريزة وحدها.

بل القلب إذا اتصل بالحق، واستخدم العقل استخدامًا منضبطًا، وضبط الغريزة بضوء الوحي.

وهنا يولد الإنسان المتوازن.

لكن يبقى سؤال أدق: إذا كان القلب هو مركز القرار، فكيف يُصلح؟

كيف ينتقل من القفل إلى الفتح؟

ومن الهوى إلى البصيرة؟

ومن التردد إلى اليقين؟

هذا يقودنا إلى محورٍ مركزي في بناء الإنسان:

الفصل الخامس

التركيبية... كيف يُعاد تشكيل الداخل؟

ليس أخطر ما في الإنسان ضعفه، ولا أخطر ما فيه قابليته للهوى، بل أخطر ما فيه أن يُترك دون تهذيب.

فالإنسان لا يثبت على حال.

إما أن يرتقي... أو ينحدر.

إما أن يزكي... أو يُدسي.

ولهذا جاء البيان الحاسم في سورة الشمس: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۖ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

هذه الآيات الأربع تكاد تختصر فلسفة الإنسان في القرآن.

النفس مسوأة.

فيها استعداد مزدوج.

فيها قابلية للفجور...

وقابلية للتقوى.

ليست شرًّا خالصًا.

ولا خيرًا خالصًا.

بل ميدانًا.

التركيبية ليست إضافة شيء غريب إلى النفس، بل تنمية ما أودعه الله فيها من قابلية النور.

والتدسية ليست خلق الشر من عدم، بل طمر الفطرة تحت طبقات الهوى.

ولهذا كان الفلاح مرتبطًا بالفعل البشري: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَكَّاهَا)

فالإنسان ليس ضحية تركيبته.

ولا سجين غرائزه.

ولا محكومًا حتمًا بانحداره.

إنه مسؤول عن نفسه.

في الخطاب المعاصر، كثيرًا ما تُختزل الأخطاء في البيئة، أو في الظروف، أو في البنية الاجتماعية.

ولا شك أن للبيئة أثرًا، لكن القرآن لا يسلب الإنسان مسؤوليته.

النفس ليست لوحًا فارغًا، بل كيانًا حيًا يتفاعل، ويختار،

ويُشكِّل ذاته عبر الزمن.

ولهذا كانت التزكية عملية مستمرة، لا قرارًا لحظيًا.

التزكية لا تعني إنكار الشهوة، ولا قمع الرغبة، ولا إلغاء الميل.

بل تعني ترتيب الداخل.

أن يكون الهوى تابعًا للحق، لا الحق تابعًا للهوى.

أن تتحرك الرغبة داخل إطار، لا أن تكون الإطار نفسه.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ﴾
﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾

النهي هنا ليس كراهية للنفس، بل ضبط لها.

فالخوف من مقام الله لا يُنتج إنسانًا مذعورًا، بل إنسانًا واعيًا بحدوده.

لكن التزكية ليست جهدًا فرديًا معزولًا.

إنها مرتبطة بالذكر،

وبالعبادة،

وبالصحة،

وبالبيئة الإيمانية.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ
وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾

الرسالة لم تكن تعليمًا نظريًا فقط، بل مشروع تزكية.

فالمعرفة وحدها لا تكفي.

والموعظة وحدها لا تكفي.

والنظام وحده لا يكفي.

لابد من إعادة تشكيل الداخل.

وهنا تظهر خطورة إهمال النفس.

فالإنسان قد ينجح ظاهريًا، ويحقق إنجازات، ويبنى صورة اجتماعية،

لكن داخله يتآكل.

وقد أشار القرآن إلى هذا الانفصال بين الظاهر والباطن: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا

مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾

المعرفة هنا سطحية.

والغفلة عميقة.

والتدسية تبدأ بالغفلة.

إن النفس إن لم تُراقب، تتسلل إليها طبقات من التبرير.

تُعِيد صياغة الخطأ فضيلة.

وتُلبس الشهوة ثوب الحرية.

وتُسمَّى القسوة صراحة.

وتُسمَّى الأنانية واقعية.

ولهذا كانت المحاسبة ضرورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾

النظر هنا ليس إلى الآخرين، بل إلى الداخل.

ما الذي أقدمه؟

ما الذي أبنيه في نفسي؟

أي اتجاه تسير روحي؟

التركيز ليست مثالية مستحيلة، بل مسار تدريجي.

فالقرآن لم يُطالب الإنسان أن يكون معصوماً، بل أن يكون صادقاً في سعيه.

ومن هنا نفهم قيمة التوبة.

ليست التوبة مجرد اعتذار، بل إعادة ضبط للمسار.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾

الحب الإلهي مرتبط بالحركة نحو النقاء،

لا بالكمال المسبق.

إن التزكية تعيد تشكيل الإنسان من الداخل، لكنها لا تعزله عن العالم.

فالإنسان المزكّي لا ينفصل عن المجتمع، ولا ينسحب من التاريخ، بل يدخل العالم بقلبٍ نظيف، وعقلٍ منضبط، وحريةٍ واعية.

وهنا يكتمل البناء:

كرامة أصلية،

حرية مسؤولة،

ضعف واعٍ،

قلب منفتح،

ونفسٌ تُزكّى.

لكن يبقى سؤال محوري: إذا كان الإنسان مشروع تزكية،

فما غايته النهائية؟

هل يعيش فقط ليهذب نفسه؟

أم أن وراء هذا البناء مقصدًا أكبر؟

الفصل السادس

الغاية... لماذا خُلِق الإنسان؟

بعد الكرامة،

والحرية،

والضعف،

والقلب،

والتزكية...

يبقى السؤال الذي لا يستقيم البناء بدونه: إلى أين يتجه كل هذا؟

لماذا خُلِق الإنسان أصلاً؟

ليس السؤال: كيف يعيش؟

ولا: كيف ينجح؟

ولا: كيف يتحرر؟

بل: لماذا وُجد؟

القرآن لا يترك هذه المسألة معلّقة، ولا يجعلها مجالاً للتخمين الفلسفي.

يقول البيان الحاسم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

آية قصيرة...

لكنها تقلب مفهوم الحياة رأساً على عقب.

كلمة (ليعبدون) ليست شعاراً تعبدياً ضيقاً، ولا اختزالاً للحياة في الطقوس.

بل هي تعريف للاتجاه.

العبادة في التصور القرآني ليست انكماشاً في زاوية، بل انفتاحاً على المعنى.

ليست انسحاباً من العالم، بل دخولاً إليه بنية صافية.

فالعبادة ليست مجرد صلاة وصوم، بل كل فعلٍ يتجه إلى الله بمعناه وقصده.

أن تعمل بعدل... عبادة.

أن تكفّ أذاك... عبادة.

أن تُثَقِّن عملك... عبادة.

أن تُتَصَفَّ خصمك... عبادة.

أن تُزَكِّي نفسك... عبادة.

العبودية هنا ليست إلغاءً للإنسان، بل توجيهًا له.

لكن الاعتراض الحديث يتكرّر: كيف تكون الغاية عبودية؟

أليست العبودية نقيض الكرامة؟

أليست الحرية أولى من الخضوع؟

السؤال مشروع...

لكن فهم المصطلح هو الفيصل.

العبودية في الخطاب البشري تعني الخضوع لقوةٍ مساوية أو ظالمة.

أما في الخطاب القرآني، فالعبودية لله هي تحرر من كل عبودية سواه.

فالإنسان عبدٌ بالضرورة.

إما عبدٌ لربه،

أو عبدٌ لهواه،

أو عبدٌ لسلطة،

أو عبدٌ لصورةٍ اجتماعية،

أو عبدٌ لمال،

أو عبدٌ لشهوة.

الفرق ليس في وجود العبودية، بل في وجهتها.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾

من لم يخضع للحق الأعلى، خضع لشيء أدنى.

الهوى قد يكون أرقّ من السلاسل، لكنه أقسى في الاستعباد.

والإنسان الذي يظن أنه يعيش لنفسه فقط، ينتهي سجيناً لرغباته.

العبادة إذن ليست تقليصاً للإنسان، بل تحريراً له من التمزق.

حين يعرف الإنسان غايته، يتوقف عن البحث العشوائي عن معنى.

حين يعرف أنه خُلق ليتجه إلى الله، تنتظم أفعاله.

النجاح يصبح وسيلة، لا غاية.

المال يصبح أداة، لا هوية.

السلطة تصبح مسؤولية، لا استعلاء.

القرآن يربط بين العبادة والمعنى الكوني: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾

الحياة ليست دورانا عبثياً، بل مسيراً.

كل إنسان يسير... شئنا أم أبينا.

لكن الفرق بين من يسير بوعي، ومن يُساق بلا بوصلة.

العبادة تجعل المسير مقصوداً.

وهنا تتضح صورة الإنسان كاملة:

مكرّم... لكن ليس متألّها.

حرّ... لكن ليس مطلقاً.

ضعيف... لكن ليس مهملاً.

مكلّف... لكن ليس عبثاً.

سائر... لكن ليس بلا وجهة.

العبودية لله هي الإطار الذي يجمع كل هذه العناصر.

ومن هنا نفهم لماذا كان الانحراف عن الغاية بداية الاضطراب الوجودي.

حين ينفصل الإنسان عن غايته، يتضخم سؤال المعنى.

يبحث عن ذاته في المال، وفي الشهرة، وفي السلطة، وفي اللذة.

لكن كل هذه الأجوبة مؤقتة.

الغاية ليست ما تملكه، بل ما تتجه إليه.

العبودية ليست إلغاءً للعقل، بل توجيهًا له.

وليس قتلًا للرغبة، بل تهذيبًا لها.

وليس كسرًا للإرادة، بل تحريرًا لها من الفوضى.

وهنا تنتهي دائرة الإنسان إلى مركزها:

ليس هو محور الكون، ولا هو هامش فيه.

بل عبدٌ في كونٍ مقصود.

لكن تبقى قضية شديدة الحساسية: إذا كانت الغاية هي العبادة،

فكيف يعيش الإنسان في عالمٍ متغير، متشابك، مليء بالصراعات؟

هل تنحصر العبودية في الداخل فقط؟

أم أنها تمتد إلى التاريخ، وإلى المجتمع، وإلى بناء الحضارة؟

هذا يقودنا إلى محور يتجاوز الفرد:

الفصل السابع

الإنسان في العالم... من العبادة إلى العمران

لو توقّف فهم العبادة عند حدود الطقوس، لأصبح الإنسان متديّنًا في زاوية، وعاريًا من المعنى في السوق، والسياسة، والعلم، والعمران.

لكن القرآن لا يسمح بهذا الانقسام.

العبودية ليست عزلةً عن العالم، بل طريقة وجودٍ فيه.

ولهذا جاء البيان الذي يعيد الإنسان إلى الأرض بعد أن رفعه إلى الغاية:
(هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)

أنشأكم...

ثم استعمركم.

أي طلب منكم عمارتها.

فالإنسان ليس متعبداً هارباً من التاريخ، ولا ناسكاً منفصلاً عن الواقع، بل كائنًا مُكَلَّفًا بإصلاح الأرض.

الاستعمار هنا ليس الهيمنة، ولا التوسع السياسي، بل الإعمار.

أن يُخرج الإنسان من الأرض خيرها، ويقيم العدل في نظامها،

ويمنع الفساد في مسارها.

ولهذا كان التحذير واضحاً: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾

الإفساد ليس مجرد خرابٍ مادي، بل انحراف في المعنى.

حين ينفصل الإنسان عن غايته، يفسد العمران.

وهنا تتكامل الدائرة:

العبادة توجه الداخل، والعمران يختبر الخارج.

الإنسان يزكّي نفسه، ثم يدخل العالم بها.

فإن لم يكن الداخل منضبطاً، تحوّل العمران إلى أداة ظلم.

وإن لم يكن العمران حاضراً، تحوّلت العبادة إلى فرديةٍ منكمشة.

القرآن يربط بين العبادة والعدل، لا بين العبادة والانزواء.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾

الأمر هنا ليس روحياً فقط، بل اجتماعياً.

فالعدل ليس ترفاً أخلاقياً، بل عمود الحضارة.

والإحسان ليس مشاعر فردية، بل روحٌ تحيي النظام.

ومن هنا نفهم أن الإنسان الموحد لا يعيش لنفسه فقط.

هو مسؤول عن أثره.

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)

رهينة بما كسبت... لا بما تمتت.

العمل جزء من العبادة، والأثر جزء من الحساب.

العمران في التصور القرآني ليس تراكم مبانٍ، ولا تضخم أرقام،

ولا سباق تقني.

بل توازن بين:

• الحق والقوة.

• العلم والرحمة.

• الحرية والمسؤولية.

• الإنتاج والعدل.

حين تنفصل القوة عن القيم، تتحول الحضارة إلى آلة.

وحين تنفصل القيم عن الفعل، تتحول إلى شعارات.

الإنسان في العالم ليس رقمًا في حركة التاريخ، ولا ضحية صماء لسننه.

بل فاعلٌ فيه.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

التغيير يبدأ من الداخل، لكنه لا يتوقف عنده.

من لم يزل نفسه، أفسد موقعه.

ومن لم يصلح موقعه، ساهم في اضطراب العالم.

وهنا يظهر الفرق بين حضارة تقوم على الاستهلاك، وحضارة تقوم على الأمانة.

الأولى تسأل: ماذا نملك؟

والثانية تسأل: ماذا نصلح؟

الأولى تقيس النجاح بالقوة،

والثانية تقيسه بالأثر.

الإنسان قبل كل شيء ليس كائنًا فرديًا منغلَقًا، ولا مشروعًا ذاتيًا صرفًا.

هو عبدٌ يعمر، ويزكي، ويعدل، ويشهد.

(وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ)

الشهادة هنا ليست قولًا فقط، بل نموذجًا.

أن يرى الناس فيك توازنًا، لا تطرفًا.

رحمةً، لا قسوة.

عدلاً، لا استعلاء.

لكن يبقى سؤال أخير، ربما هو الأعمق في هذا الكتاب كله:

إذا كان الإنسان مكرّماً، وحرّاً، وضعيفاً، ومسؤولاً، ومزكّياً، وسائرًا إلى غاية، ومكلفًا بالعمران...

فما الذي يهدد كل هذا البناء؟

ما الذي يُسقط الإنسان من مقامه، ويحوّله إلى نقيض ما خُلق له؟

هذا يقودنا إلى الخاتمة الكبرى:

الفصل الثامن

حين ينسى الإنسان نفسه

قد يظن الإنسان أن أخطر ما يمكن أن يفقده هو ماله، أو سلطته، أو مكانته، أو صحته.

لكن القرآن يكشف عن خسارةٍ أعمق، وأشدَّ خفاءً، وأكثرَ هدوءًا في وقوعها: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

أن ينسى الإنسان نفسه... ليس أن يفقد ذاكرته، ولا أن يجهل اسمه، ولا أن يضلَّ طريقه في مدينة.

بل أن يجهل حقيقته.

أن يعيش بعيدًا عن غايته، فيظن أنه يعرف نفسه... وهو في الحقيقة يهرب منها.

الآية ترسم معادلة دقيقة:

نسيان الله → نسيان النفس.

فالعلاقة بين العلوّ والداخل ليست علاقة طقسية، بل علاقة وجودية.

حين ينفصل الإنسان عن مرجعه الأعلى، يفقد مرآته.
من دون الله، لا يبقى معيار ثابت، ولا يبقى مركز واضح.
فيبدأ تعريف النفس يتبدّل.
مرة تُعرّف بالإنجاز.
ومرة تُعرّف بالرغبة.
ومرة تُعرّف بالقبول الاجتماعي.
ومرة تُعرّف بالنجاح المادي.
لكن كل هذه تعريفات مؤقتة.
النفس التي لا تُبنى على معرفة ربها تبقى متقلبة.
نسيان النفس لا يحدث فجأة.
إنه تدرّج صامت.
يبدأ بتأجيل السؤال الوجودي.
ثم بتهميش الضمير.
ثم بتبرير الخطأ.
ثم بتغيير اللغة لتناسب الانحراف.

ثم يصبح الخطأ هو الطبيعي.

وهنا يكتمل الانفصال.

الإنسان قد يحقق نجاحًا خارجيًا، لكنه يخسر داخله.

وقد يُصَفَّق له الناس، بينما قلبه فارغ.

وقد يبدو قويًا، وهو في الحقيقة هشّ.

القرآن لا يترك الصورة معلقة، بل يحذّر من المصير الذي يترتب على هذا النسيان: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾

التحذير ليس من فعلٍ عابر، بل من نمط حياة.

نسيان الله ليس إعلان إلحادٍ بالضرورة، بل قد يكون غفلةً مستمرة.

أن يعيش الإنسان وكأن الله غائب عن قراراته، وعن أخلاقه، وعن معاملاته، وعن اختياراته الكبرى.

وهنا يبدأ التصدع.

لكن لماذا يؤدي نسيان الله إلى نسيان النفس؟

لأن النفس لا تُعرَف إلا في ضوء خالقها.

من دون معرفة المصدر، يضيع المعنى.

كما أن الآلة لا تُفهم بعيدًا عن غرض صانعها، كذلك الإنسان.

حين يعرف أنه مخلوق، يعرف أنه محدود.

وحين يعرف أنه مُكرَّم، يعرف أنه مسؤول.

وحين يعرف أنه سائر إلى لقاء، يعرف أن أفعاله ليست عبثًا.

أما إن ظن أنه بلا مرجع، تبددت هذه المعالم.

نسيان النفس ليس فقدانًا للمعلومات، بل فقدانًا للاتجاه.

قد يعرف الإنسان كثيرًا عن العالم، ولا يعرف لماذا يعيش فيه.

وقد يتقن مهارات الحياة، ولا يتقن فنَّ أن يكون إنسانًا.

وهنا يتجلَّى الفرق بين المعرفة والحكمة.

المعرفة توسّع الإدراك، أما الحكمة فتضبط المسار.

القرآن يريد إنسانًا حاضرًا مع نفسه، لا هاربًا منها.

إنسانًا يواجه ضعفه، ويزكّي قلبه، ويُخضع حريته للحق، ويعمر الأرض بالعدل، ويعيش غايته بوعي.

هذا هو الإنسان قبل كل شيء.

ليس عنوانًا سياسيًا، ولا شعارًا ثقافيًا، ولا مشروعًا أيديولوجيًا.

بل كائنًا يعرف من أين جاء، ولماذا جاء، وإلى أين يمضي.

النسيان يقابله الذكر.

والذكر ليس ترديدًا لفظيًا فحسب، بل استحضارًا دائمًا للمعنى.

حين يذكر الإنسان ربّه، يستعيد نفسه.

وحين يستعيد نفسه، يستقيم طريقه.

وفي النهاية، ليس السؤال: هل أنت ناجح؟

ولا: هل أنت مشهور؟

ولا: هل أنت قوي؟

بل: هل أنت حاضر مع نفسك؟

هل تعرف لماذا تعيش؟

هل تعرف ما الذي يشكّل قلبك؟

هل تعرف إلى أين تتجه؟

الإنسان قبل كل شيء هو هذا الوعي.

وعيٌّ بالكرامة، ووعيٌّ بالحرية، ووعيٌّ بالضعف، ووعيٌّ بالغاية، ووعيٌّ

بالمصير.

ومن فقد هذا الوعي، فقد نفسه... ولو ملك العالم.

الخاتمة

أن تستعيد نفسك... قبل أن تستعيد العالم

حين بدأت هذا الكتاب، لم أكن أبحث عن تعريفٍ جديد للإنسان، بل عن تعريفٍ أصدق.

تعريفٍ لا يُختزل في جانب، ولا يُفصل عن غايته، ولا يُضخم حتى يتأله، ولا يُحتقر حتى يتشياً.

وقد سرنا عبر فصوله من الكرامة إلى الحرية، ومن الضعف إلى القلب، ومن التزكية إلى الغاية، ومن العبادة إلى العمران، حتى بلغنا أخطر نقطة: نسيان النفس.

الإنسان لا يسقط فجأة، ولا يضيع فجأة.

إنه ينحرف حين ينسى من هو، ولماذا هو هنا، وإلى أين يسير.

حين تتحول الحياة إلى سلسلة أهداف قصيرة، ويغيب الهدف الأكبر، تبدأ الروح في الانكماش.

قد ينجح الإنسان في الخارج، لكنه يخسر في الداخل.

وقد يبني حوله عالمًا متماسكًا، لكن قلبه يتفكك.

القرآن لا يريد إنسانًا مثاليًا معصومًا، ولا إنسانًا منسحبًا من الواقع، بل إنسانًا واعيًا.

واعيًا بضعفه فلا يغترّ، واعيًا بكرامته فلا يذلّ، واعيًا بحريته فلا ينفلت، واعيًا بغايته فلا يتيه.

هذا الوعي هو جوهر الإنسان.

إن لم تستعد نفسك، لن ينفعك أن تستعيد العالم.

وإن لم تُصلح قلبك، لن تُصلح موقعك.

وإن لم تُحدّد غايتك، ستتبع غايات غيرك.

الإنسان قبل كل شيء

هو هذا التوازن الدقيق: بين الأرض والسماء، بين الحرية والحد، بين الضعف والرجاء، بين الفرد والمجتمع، بين الحاضر والمصير.

قد لا يغيّر هذا الكتاب العالم، لكنه قد يغيّر زاوية النظر إليه.

وقد لا يحسم كل الأسئلة، لكنه يعيد ترتيبها.

فإن خرجتَ منه وأنت أكثر وعيًا بنفسك، أصدق في محاسبتها، أهدأ في حريتك، وأعمق في عبادتك، فقد تحقق المقصود.

الإنسان قبل كل شيء

هو أن تعرف من أنت... وأمام من تقف... وإلى من تمضي.

وما سوى ذلك تفاصيل.